قراءة

أمل بوشارب الجزائر وأبعد في حبكة بوليسية

حكاية مجتمعات مقهورة

مع روايتها الجديدة، تختتم امل بوشارب ثلاثية «الجزائر»، التي بدأتها بـ«سكرات نجمة» (2015) واستكملتها بـ«ثابت الظلمة» (2018). في حبكة بوليسية وبناء روائي محكم، تسلّط الكاتبة الضوء على جرائم غامضة مركزها عمليات خطف واختصاء

سومر شحادة

عبر حبكة بوليسية تعرضُ الكاتبة الجزائرية أمل بوشارب في روايتها «في البدء كانت الكلمة» ظاهرة مُذهلة تستفيق عليها البلاد، وتتمثل بعمليات خصاءٍ غامضة لأطفال دون عمر الخامسة، ومن خلال ما يبدو أنه إطلال على عالم الجريمة المنظمة، يجمع العمل خيوط الواقع الاجتماعي والسياسي في الجزائر.

في الرواية الصادرة عن «منشورات الشهاب»، وعبر 336 صفحة، تصنع بوشارب فضاءً حكائياً وتُوقع بالقارئ في عملية إيهام مُحكم عن حكاية تلتزم قوانين الواقع، من غير أن تكون حكاية واقعية. بناء حيّ يشبه بلدها، وتتفاعل فيه من تيارات فكرية ودينية ما يتفاعل في البلد الذي تحرّر من الاستعمار الفرنسي، واستولت عليه في وقت لاحق أنظمة أمنية، كما تشكّل سنوات «العُشرية السوداء» الخلفية الدامية لحكايتها. بالتالي، يظهر الخصاء في أحد أوجهه خصاءً سياسياً، وهو بالنظر إلى حال المرأة المعنّفة خصاءً قيمياً، تصوّر الكاتبة من خلاله تردي حقوق المرأة، بمحاكمتها على أساس «النوع». تستخدم الكاتبة الخصاء في دلالات عديدة، فهو - ضمن بلدان تشكو من دورات عنفٍ متكرّرة - استعارةٌ عن العجز، واستعارةٌ عن الذكورة التي لا تظهرُ إلا عنفاً، ولا تتجسّدُ إلا في القتل والجريمة، ولا تتمثّل إلا في قيم الخديعة والجاسوسيّة. تنتزعُ الكاتبة من عالم الرجال أكثر ما يخصّهم، وهو ما يرمز إلى «النوع»، فالخصاء يفقدهم شيئاً من تفوّقهم المزعوم. في ضوءِ ذلك، يظهر الرجال ضحايا لأنفسهم. ثمّ تظهر آثارُ سلوكهم في رسم مصائر نساءٍ تعانين من عسف الرجال وقهرهم.

امل بوشارب

توظف الكاتبة في حبكتها عائلة هاربة من الحرب السورية، لكنّ الحرب لا تحضرُ خالية الوفاض إلى المجتمع الذي تتحدّث عنهُ الكاتبة، بل تُحضِرُ معها قيمها، بدءاً من أوهام الخلاص الفردي، إلى تصوّرات الزيف التي تترافق مع القتل ومع الهروب، كما لو أنّ الناس يلجأون إلى تزييف حياتهم، لأنّ في داخلهم شعوراً قاسياً وواهماً، بأنّ الموت والخطف ليسا حقيقيين. وباستخدام شخصية هنادي، تتجلى قيمُ الناجين من المجزرة، إذ تحاول الفتاة السوريّة أن تندمج مع الآخرين، وفي الوقت ذاته ينمو في داخلها إحساسٌ بالتفوّق عليهم، يترافقُ مع إحساس مرير بالحظّ العاثر. تستخدم الكاتبة أيضاً شخصية أميركية تجيء من عالم يشتغل بمسائل مغايرة، من عالم يبدو عالماً جديداً، وتولّده الكاتبة من تناسُخ أرواح، تنتمي إلى العالم القديم. فالمُخلّصة الأميركية كايلا تحمل روحَ القاتل الجزائري فاتح مترف الذي تدور الرواية عن عائلته.

تجمعُ عائلة مترف خيوط السرد كافةً، وتتداخل في قصة اختفاء الأب مجهول المصير - الذي اختُطف من قبل جهاز أمني بعد اتهامهِ بإخصاء عددٍ من الأطفال في أثناء عملهِ ممرضاً، ثمّ ليتبيّن أنّه قد قُتل - صنوف التآمر كافة، بدءاً من الأخ الذي يريد أن يطرد عائلة أخيه، إلى الطبيب الذي تساهل في تقريره عن عمل الممرض، إلى الأمن الذي يريد أن يظهر مسيطراً. إنّ فاتح مترف (المجرم/ الضحية) يمثّل تجسيداً مثالياً للحالة التي علّقت بها المجتمعات العربية؛ الجميع ضحايا لجرائم كانوا قد اقترفوها بتواطؤ جماعي. أما ياسمين، ابنة مترف وطالبة الطب، فتحاول الخروج عن مصيرها المكتوب لها، فتشارك في مظاهرات الحراك الجزائري (2019) لتدفع ثمن ذلك. وتتجلّى السلطة الذكورية أيّما تجلٍ في سلوك نساء العائلة، لا رجالها. فوالدتها أرادت لها أن تعود وتعمل في المستشفى الذي طُردَ منهُ الأب، تعزيزاً لتفكير كبدي يورّثُ الأحقاد دائماً.

توزّع بوشارب شخصياتها على أهواء ومذاهب متفرقة، وتظهر لقارئها شتات سبل الخلاص، وأزمات الإنسان الذي يبحث عمّن يلجأ إليه، عمّن ينقذهُ من القسوة والعنف. يبقى القاتلُ الذي يُجري عمليات الخصاء لغزاً، حتى الصفحات الأخيرة حيثُ تُنهي الكاتبة لعبة الإيهام، وتغلقُ النص على الأسئلة جميعها. والألغاز التي راحت تراكمها، ومن ثمّ تواريها وراء الغازٍ أعقد، تكشفها للقارئ في صفحات قليلة. وينتهي التشويق الذي يمسك بالقارئ صفحة بعد أخرى، مع الضابط السابق الذي يستغل ضحايا عمليات خصاء قديمة، كي يوقع بضحايا جدد. إنها حلقة مغلقة من الألم، تسند الكاتبة إلى الضابط عقدة تلك الحلقة القاتلة. ومن ثمّ تدفع إلى إفشاله، عبر تالف الجماعة، وسعي الشخصيات إلى نيل الحقوق، الأمر الذي يستبسلون من أجل تحقيقه.

تضع بوشارب الضابط السابق في مواجهة الطبيب، وقد بدا أنها تختار ثنائيات، كلّ منها يخدم طرفاً نقيضاً، مثل العلم والجهل، الإيمان السمح والمتشدّد، الخرافة والحقائق.

إضافةً إلى ثنائيات كثيرة أخرى تكشف من خلالها ذلك العالم الماضوي الذي تأسّسَ فيهِ المجتمعات، وثُهدّدُ قيمها، ويُعذّبُ ناسها. إنّها مجتمعات تريدُ أن تتحرّر من غير أن تعرف طريقاً لذلك، إذ لا يعبّر يوسف عبر صفحته المزورة على الفيسبوك، وعبر خطاب الكراهية الذي يبثّه، والرغبة العميقة بالانتقام التي تحرّكه، لا يعبّر وحسب عمّا يشغلهُ - وهو أحد ضحايا عمليات الخصاء - بل تتبدّى من خلالهِ تلك الجموع العاجزة، التي لم تجد من يفكر في إنقاذها، لتقتصر أفعالها على إرادةٍ غاضبة وعنيفة، تفتقد أدوات التحرّر، جموعٌ عاجزة، تئن بأصواتٍ مخنوقة، وهي تحاول تغيير واقعها.

رواية بوشارب هي الثالثة ضمن ثلاثية «الجزائر» التي صدر منها «سكرات نجمة» (2015) و«ثابت الظلمة» (2018)، التي تنجح فيها، عبر شروط الفن الروائي، في توظيف علمي الاجتماع والنفس وتستند إلى الرواية دراساتٍ وإحصائيات، ومعلوماتٍ تاريخية ونظريات نفسية، وتفاصيل طبية تشريحية. وعبر كل ذلك، تنمو الحبكة في اتجاهٍ تصاعدي، تتشابك الخيوط وتتعقّد، ومن ثمّ تنحلّ عُراها إلى وجهات عديدة، تساند المجتمعات المقهورة بحكاياتٍ عن النجاة، وعن التكاتف الإنساني في وجهِ الظلم.

(كاتب من سورية)

> تشكّل سنوات «العُشرية السوداء» الخلفية الدامية لحكايتها
>
> بلدان تحرّرت من الاستعمار واستولت عليها أنظمة أمنية

بطاقة

روائية ومترجمة جزائرية من مواليد دمشق عام 1984، مقيمة في إيطاليا، وهي مديرة تحرير مجلة «اريسك» الإيطالية التي تُعنى بالأدب العربي. أول إصداراتها مجموعة قصصية بعنوان «عليها ثلاثة عشر» (2014)، ولها في الرواية ثلاثة أعمال صدرت عن «منشورات الشهاب»: «سكرات نجمة» (2015) و«ثابت الظلمة» (2018)، و«في البدء كانت الكلمة» (2021). وهي تكتب أيضاً بالإيطالية التي صدرت لها فيها قصة «المتمرّدة» (2019).

إطلالة

في فضائل الشخصيّ ومثالبه

النقد قابل للنقد

> استاء ناقد مثل الفرنسي سانت بوف أحكامه من حيوات الكتّاب الشخصية، أوقعه في أخطاء جسيمة: أهان فلوبير وبلزاك ورفع من شأن كتّاب عابرين

فوّاز حداد

المثير في ما يقع من أخطاء في تقييم الأعمال الأدبية أنها لا تنجم دائماً عن الغيرة والحسد، أفة الثقافة والمثقفين، أو عن الاستسهال في إبداء الرأي، والتعسّف في التعبير، والضعف في المحاكمة، ولا حتى هشاشة الأدوات النقدية، وعدم توفر منهج واضح في مقاربة العمل الأدبي. بل بالرغم من توافر النقد والناقد، هناك أعمال أدبية نالتها انتقادات ظالمة، ولحقها غبن في التقييم. الأمر الجيد، أنّ من إيجابيات النقد إعادة النظر في ما ارتكب من أخطاء، ربما كانت عن تسرّع. فالنقد قابل للنقد، وأحكامه ليست نهائية. بعد سنوات، مهما طالت، ينفض الغبار عن الكتاب، وينقض الحكم الجائر، ويجري الاعتراف به، وتستقر مكانته في تاريخ الأدب، أو يبقى خاضعاً للأخذ والردّ. شارل - أوغستان سانت بوف، واحد من أهمّ النقّاد الفرنسيين في القرن التاسع عشر، ومؤرّخ لامع لتاريخ الحركة النقدية والفكرية في فرنسا، لُقّب بأديب النقد؛ لم يكن هناك مَن يفوقه فهماً لمهام الناقد والنقد. كان صاحب منهج النقد التاريخي، الداعي إلى دراسة الأدباء دراسة علمية، إلى حدّ عدم إهمال التفاصيل الصغيرة والدقيقة عنهم، تقوم على بحوث موسّعة تشمل علاقتهم بعصرهم ووطنهم وبيئتهم وعائلاتهم، إضافة إلى تكوينهم الثقافي وأخلاقهم وأمزجتهم وتربيتهم، تقاليدهم وعاداتهم، الملامح النفسية والعقلية، جوانب القوة والضعف في شخصياتهم... كلّ شيء يخصّهم.

منهج سانت بوف، حسب قوله، استلزم معرفة أخلاق الكاتب، وميوله، وطباعه، ومزاجه، من أجل الوصول إلى حقيقته، فلا يظنّ أحد أن لا علاقة لها بالكتاب. وظيفة النقد الأدبي حسب منهجه: هي النفاذ إلى ذات المؤلّف، لتستشفّ روحه التي وراء ما يكتبه، ما يضع الناقد نفسه موضع الكاتب.

هذه البحوث كانت تمنحه القدرة والمهارة على التماهي مع شخصية الأديب الذي يقع تحت مبضعه، ما يحيله إلى رجل عادي من دون هالات، أو تمثيليات يُتقنها بعض كبار الأدباء عن أنفسهم، بعد تجريده منها تغدو أفكار الكاتب مألوفة، وشطحاته معروفة، فلا نستغرب شيئاً في شخصيّته، لا يميزه الكثير عن غيره. كلّ هذا يهيّئ لفهمه: ماذا هو؟ ماذا يكون؟ وحقيقة ما انجزَ؟ يُصبح مجرّد إنسان، يضعه إلى جوار أعماله، ويُجري دراساته حولهما. ما دفع معاصري سانت بوف إلى الاعتراف بأنّه يمارس عمله بعمق وتقده بنزاهة.

ركّز سانت بوف على شخصية الأديب تركيزاً مطلقاً، إيماناً منه بأنّه المنتج الأوحد لكتابه، وشخصيته لها العامل الأكبر في تفسيره، وإدراك مدى عمق وقوة أدبه، وهو الفيصل في تصنيف المبدعين. كانت أحكامه تقتصر على شخصية المؤلّف، وتستقي أحكامها من حياته الشخصية، ما أوقع سانت بوف في أخطاء جسيمة، نالت من كبار كتّاب عصره. ولم يتمكّن من إدراك عظمة أعمالهم، بينما رفع من شأن كتّاب وشعراء لم تصمد أعمالهم أمام الزمن.

النهج الذي اتّبعه في دراساته أدّى به إلى وصف فلوبير بالكاتب المنحطّ، بعدما اطّلع على نزواته الجنسية ومغامراته العاطفية مع عشيقاته. وقيّم بلزاك المطارد من الدائنين واللاهث وراء النبالة بأن سينتهي بمأساة كتاب لن يقرأها أحد. وقرأ أعمال ستاندال على ضوء حياته الشخصية فوجدها مقيتة وكريهة. وقال عن تولستوي، إذا كان مهماً، فبالنسبة لروسيا، أما عندنا فليس سوى موضة. لا يعني هذا أنّه كان مخطئاً كلّيّاً. إنّ تقصّي الحياة الشخصية للمبدع والاطّلاع عليها عن قرب، قد يكون مثيراً للفضول، وهو نوع من السيرة الذاتية التي تلهث وراء حياة المبدعين وتُكتب فيها وحولها عشرات الكتب. فحياتهم تُبعد لا ينضب من التأويلات ومحاولات الاكتشاف، وقد تساعد على تقييم أعمالهم، لكنّها ليست معياراً نقدياً يُعتمد عليه. يكتب الكاتب وحيداً، ولا شكّ أنّ شخصيته في عزلته ليست هي ذاتها في المجتمع، أو بين أقرانه. ولا غرابة في القول إنّ للكاتب أكثر من شخصية واحدة؛ إنّه بشكل ما منتحل شخصيات، وربما أصدقها عندما يكتب أعماله، ولا تكتسب عظمتها إلا لأنّه في وحدته يواجه ذاته والعالم والحياة معاً.

(روائي من سورية)

> للكاتب أكثر من شخصية، وربما أصدقها عندما يكتب أعماله

شارل - اوغستان سانت بوف 1804-1869 (Getty)

قصائد

قتلني الماضي في اللغة والحاضر خارجها

أحتفظُ بقبضة ماء وأخسرُ البحر

أحمد محسن غنيم

قطعة اليوكا
التي قسمها صاحب صديقتي لثلاثة أجزاء
ذلك الجزء الرابع
الذي لم يفكّر فيه:
بلدي... منفاي.

■■■

- ماذا يسحبون بحبالهم؟
- البحر.
-الصيّادون!
-يقتطعون لهم من البحر بيتاً.

■■■

فتّشني ضابط الشرطة
يبحث في حقيبتي عن خطر محتمل.
خاب مسعاه،
ومسعاي،
في أن يجد شيئاً.

■■■

أختي في رسالةٍ صوتيّة
ارتكبتُ خطأً في البلاغة
قالت:
كُنتَ حنوناً.
قتلني الماضي في اللغة،
والحاضر خارجها.

■■■

أكتب قصيدة عن الدودة التي انكمشت
ترجوني ألّا أدهسها بمكنستي
- بعد أن بكيت لبنان بعد الانفجار -
أرقب سرطاناً كبير الحجم يعبر الطريق
وأرى موته قبل أن يقتلوه
أحاول إنقاذه
لا أقدر
أرى أشلاءه تتناثر على الطريق
توزّع ما بقي فيها من حياةٍ
في النسيم يعيدها إلى البحر
ليُدفن حيث عاش
أعدل صرصاراً مقلوباً
وأنا أذكر قصيدة مايكل بينيتيس عن الحبّ
لكنّني الآن
بوحشيّتي الأصيلة
أدوس حشرةً لا أعرف اسمها
ولا تاريخ ميلادها
لم أنظر إلى عينيها
قبل أن أنفذ الحُكم
ولم أسألها عن أمنيتها الأخيرة
لم أفكر في أمّها التي ستثكلها
ولا في صغارها المُنتظرين
هل قتلتُها جائعة عطشى؟
لم أمنحها من زجاجتي الكبيرة
شربة ماء.
كانت حشرةً
وكان يمكن لها أن تعطّلني عن كتابة هذه القصيدة،
دُستها وألقيت بها من النافذة.

الآن
أذكر ضابط الشرطة
في بلادي.
سأدفع عن رسمتي
بالرمل والحجارة
سأبني قلاعاً وأسواراً
لأحمي في الرمل رسمي
سأضربُ هذه الأمواج
بكرات رمل الشاطئ
سأنزع قميصي وأجعل منه
سلاحاً
أضرب به الماء الغشيمَ
لن يلتهم البحرُ رسوماتي الصغيرة.

■■■

أقرأ لصاحبتي اخر ما كتبتْ
وأجرُّ النعتَ بدل رفعِه
أعودُ لبدء القراءة من جديد
أصحّحُ خطأً لا يُهمُّ العالم.

■■■

انكسر قلبُ صديقتي
فوضعتْ يديها بين كفَّيَّ
وقالت لي:
انظرْ إلى قلبي المُهشَّم
أخذتُ بيدِها إلى البحرِ
وغرفتُ غُرفةً
ثم سألتُها:
ماذا ترين؟
-الماء يذهب.

(شاعر ومترجم مصري مقيم في كولومبيا)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

عمر ريو رنس (كولومبيا)، مواد مختلفة على ورق، 1958

فعاليات

في «النادي الثقافي الطاهر الحداد» بتونس العاصمة، ينطلق غداً الاربعاء **المهرجان الوطني لآلة العود** بعرض موسيقي للفنان **زياد غرسة**. يتواصل المهرجان حتى 23 من الشهر الجاري، ومن عروضه: «تطريز» لـ **سميح محجوبي**، و«نغمة الطبوع» لـ **زياد مهدي**، و«لقاء» لـ **منى شطورو**، و «زوارق الغياب» لـ **رضا الشمك**.

العنف الإيكولوجي الاستعماري عنوان محاضرة لـ **إسلام الخطيب**، تنظّمها اليوم، الثلاثاء، بداية من السادسة بتوقيت الاردن «دارة الفنون» في عمّان. تقرا من تقديم الامسية: «في فلسطين، يبني الاستعمار الاستيطاني الحياة السياسية والاجتماعية من خلال الاستيلاء المستمر على الاراضي، ويفرض ثقافته عبر الممارسات التي تحاول حجب الشعب الفلسطيني».

بداية من العاشرة من صباح يوم غدٍ الاربعاء، وعلى مدى يومين، ينظّم «مختبر التأويليات والدراسات النصية واللسانية» (كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة عبد المالك السعدي)، في تطوان، مؤتمراً علمياً دولياً يحمل عنوان **تأويلية العلم وتأويلية الفن: وجوه التفاعل وأنماط التقاطع**.

تنظّم «ساقية عبد المنعم الصاوي» في القاهرة، بداية من الثامنة والنصف من مساء اليوم (توقيت مصر)، حفلاً تُقيمه **فرقة الاحباب للإنشاد الديني**. تأسّست الفرقة في 2019 وهي تستعيد التراث الصوفي الذي تداولته الاجيال سواء منه الشعبي الذي ظهر في الزوايا، او ذلك الذي يعتمد على الشعر الصوفي.